16 e Année No. 761

Lundi — 2 — 2 — 1948

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٧٦١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٢ شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٧ — ٢ فبراير سنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

محمد إسعاف النشاشيبي

أهكذا ، وفى أسرع من رجع النفس يسكت اللسان الذلق ، ويسكن العصب الثائر ، ويخمد الذهن المتوقد ، ويقف الفؤاد الذكى ، ويصبح النشاشيبي نعياً فى الصحف ، وخبراً فى البلاد ، وحديثاً فى المجالس ، لا يقول فنسمع ، ولا يكتب فنقرأ ؟ !

أهكذا ، وفى مثل ارتداد الطرف يترك النشاشيبي قلمه سائلا بالمداد ، وكتبه مهيأة للطبع ، ومجلسه مشتاقاً للسماع ، ومجلته منتظرة (للنقل) ، ويذهب إلى حيث لا يرجع ولا يكتب ولا يتحدث ؟ !

سبحانك يا رب ! شعاع أرسلته ثم رددته ، وروح بثثته ثم أعدته ، وظل بسطته ثم قبضته ، ولواء رفعته ثم خفضته ، وبنو آدم العاجزون الضعاف لا يملكون أمام أمرك البادى وسرك المكنون إلا أن يشكروا على العطاء والأخذ ، ويحمدوا على المحبوب والمكروه !

كنت ثالث ثلاثة استبقاهم الوفاء بجانب إسعاف فى ساعاته الأخيرة ؛ وكان الطبيب واقفاً يصف الدواء وينظم العلاج ويرشد الممرضة ؛ وكان المريض جالساً فى سريره حاضر الذهن حافل الخاطر يغالب انبهار النفَس من الربو ، ويجاذب العوّاد مارقّ من الحديث : فهو يضع لسانه حيث شاء من نوادر اللغة ، وطرائف الأدب ، فينتقل من الكلام فى (ليس غير) إلى الكلام فى ترجمة (حوتة) لقصيدة خلف الأحمر ، حتى إذا سمع الطبيب يصف له البنسلّين قطع الحديث وقال بلهجته المعروفة : أنا أكره البنسلين لأنه أنقذ تشرشل ! فقلنا له : ونحن نحبه لأنه سينقذ أبا عبيدة ! وكانت مظاهر العزم فى حديث (أبى عبيدة) توسع فى أنظارنا فسحة الأمل ، وتصرف عن أذهاننا فكرة الخوف ، فلم يدرِ في خلدنا أن المنية كانت مرنّقة فوق سريره تنتظر أنفاسه المعدودة أن تنقضى ، وألفاظه المسرودة أن تنفد ، فلم يكد السامر ينفض والساهر ينام حتى ختمت على فمه المنون فسكت سكوت الأبد !

ولد محمد إسعاف بن عثمان النشاشيبي بالقدس حوالى سنة ١٨٨٢ فى أحد البيوتات التى تجاذبت السيادة على فلسطين ؛ وكان أبوه من ذوى الثراء والدين والخلق فنشأه على الطباع العربية الأصيلة من جراءة القلب وصراحة الرأى وحرية الضمير . ثم أراد أن يجمع له أطراف المجد بالعلم والمال فبعث به إلى المدرسة البطركية ببيروت فشدا شيئاً من مبادىء الآداب والعلوم ، ثم انقلب إلى أبيه ، وكان يومئذ وحيده ، فنظمه بالعمل فى سلكه ،

ونزل له بالبيع عن أكثر ملكه . وأخذ إسعاف يتقلب في ظلال أبيه على مهاد النعيم والخفض حتى تزوج أبوه زوجة أخرى ، ورزقه الله ولداً آخر ، فأراد إسعافاً على أن يرد إليه ما أعطاه ليكون شركة بينه وبين أخيه ؛ فأبى إسعاف أن ينزل عن شيء دخل في رزقه وأصبح من حقه . . . وانشقت العصا بين الأب وابنه ، فخرج إسعاف من كنف الأبوة مغاضباً يضطرب في المعاش ويسعى على نفسه . ومنذ ذلك اليوم عرف إسعاف الهم وذاق الألم وكابد البؤس . كان يعمل ليلهو فأصبح يعمل ليعيش ؛ وكان يقرأ ليلذ فأصبح يقرأ ليعلم ؛ وكان يحيا لينعم فأصبح يحيا ليموت . وولى أبوه غفر الله له وساطة الناس أذناً صماء فلم يعنه على تكاليف العيش بتمكينه من ريع أرضه ، فذهب يستقطر الرزق من تعليم العربية في بعض المدارس . وكان يعول بعض الضعيفات من أهله ، فتحمل في سبيل ذلك رهقاً شديداً بقى أثره بارزاً في نفسه طيلة حياته ، تعاوده ذكراه في سكينته فيضطرب وفي لذته فيتألم. ثم حسم الله الخلاف بينه وبين أبيه بالموت ، فوضع إسعاف يده على نصيبه من الثراء العريض . وعاد إليه الحظ باسماً يتملقه ويعتذر إليه ، فتلقاه الكادح المحروم كما يتلقى الثرى المكروب ماء المزن وفي القدس شيد قصره المنيف ليكون مثابة للأدباء ومجمعاً للأدب ، ثم اقتنى مكتبة من أنفس الكتب وأندرها ، وأقبل عليها وهو لا يزال في ربيع العمر فقتلها علماً وفهماً وتدقيقاً وتعليقاً واختياراً واستظهاراً فلم يترك كتاباً مما أخرجته المطابع أو نسخته الأقلام في القديم والحديث إلا قرأه وعلق عليه واستفاد منه . ثم وقف بعد ذلك نفسه ووقته وجهده على دراسة الإسلام الصحيح في مصادره الأولى ، وتحصيل اللغة وعلومها وآدابها من منابعها الصافية ؛ وأعانه على ذلك قريحة سمحة وبصيرة نيرة وحافظة قوية وذوق سليم ، فكان آية من آيات الله في سعة الاطلاع وكثرة الحفظ وتقصى الأطراف وتمحيص الحقائق . ثم جلس على مكتبه كما كان يجلس ابن دريد ، عن يمينه زجاجة فيها مداد القلم ، وعن يساره أخرى فيها مداد الفكر ؛ وأخذ يعسل كما تعسل النحل إذا امتلأ جوفها بالرحيق . وفاضت بهذا العسل المصفى أنهر الصحف والمجلات في الشام ومصر ، فاشتاره القراء متنوع الطعوم مختلف الألوان متعدد الأسماء. ولئن سألوا عن هذا الشراب أعياهم أن يجدوا الجواب في إمضاءاته الرمزية من نحو (ن) و (أزهرى المنصورة) و (* * *) و (السهمى) ؛ لأن النشاشيبي لم يكتب للشهرة والمجد ، إنما كان يكتب للعصبية والعقيدة . أخلص لله فأخلص لقرآنه ، وأولع بمحمد فأولع بلسانه . فإذا جلس إلى الناس في القدس أو في دمشق أو في القاهرة كان مجلسه ندوة علم وأدب وفكاهة ، لا تذكر مسألة إلا كان له عنها جواب ، ولا تثار مشكلة إلا أشرق له فيها رأى ، ولا تروى حادثة إلا ورد له عليها مثل ، ولا يحضر ندوته أديب مطلع إلا جلس فيها جلسة المستفيد . ثم كان في غير مكتبه ومجلسه يشارك في معارف فلسطين بعمله ، وفي المجمع العلمي العربي بعلمه ، وفي الثقافة العامة بكتبه ، وفي المحافل الأدبية بخطبه ، وفي المساعي الخيرية بماله . ثم أقلع منذ أربعة عشر عاماً عن شهوات الجسد فلم يبق له من لذاذات العيش إلا الكتاب العربي والسكارة التركية. ولكن إسرافه على شبابه أعقبه علة في شعاب الرئة جرت إليه الربو ؛ واصطلحت هاتان العلتان على القلب طيلة عشر سنين حتى أضعفتاه ، ومن هنا جاءت منيته .

كان النشاشيبي جاد الله بالرحمة تراه رجل وحده في الأسلوب والخط والحديث والتحصيل . أسلوبه عصبي نارى تكاد تحس الوهج من ألفاظه ، وتبصر الشعاع من مراميه . وخطه نمط عجيب بين الكوفي والتعليق لم يأخذه عن أحد ولم يأخذه منه أحد . وحديثه نبرات قوية تبرز الألفاظ ، وحركات سريعة تمثل المعاني ، وانفعالات شتى تتعاقب على قسمات وجهه وأصابع يده . وتحصيله عجب من العجب ؛ لا تستطيع أن تذكر له كتاباً من كتب العربية لم يقرأه ، ولا بيتاً من شعر الفحول لم يحفظه ، ولا خبراً من تاريخ العرب والإسلام لم يروه ، ولا شيئاً من قواعد اللغة ونوادر التركيب وطرائف الأمثال لم يعلمه ؛ فهو من طراز أبي عبيدة والمبرد ، ولذلك كان أكثر ما يكتب تحقيقاً واختياراً وأمالي . ثم كان إلى كل أولئك متواضع النفس ، فكه الأخلاق ، لطيف الروح ، نفاح اليد ، عفيف اللسان ، مأمون المغيب ، لا يتعزز بحسبه ، ولا يطاول بماله ، ولا يباهى بعلمه ، ولا يفخر بشيء مما يتمدح به الناس إلا بالانتساب إلى العرب والانتماء إلى محمد ! إن النشاشيبي كان خاتم طبقة من الأدباء اللغويين المحققين لا يستطيع الزمن الحاضر بطبيعته وثقافته أن يجود بمثله فمن حق المحافظين على التراث الكريم ، والمعتزين بالماضي العظيم ، أن يطيلوا البكاء على فقده ، وأن يرثوا لحال العروبة والعربية من بعده !

احمد حسن الزيات